

الفايسبوك بين العمى الاجتماعي و فرص للتجدد مقاربة سسيوسيكولوجية لفهم الواقع..

مهيدة وهيبة

أستاذة بجامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس
ouahibaaboubeker@yahoo.fr

الملخص:

إن الناظر لتاريخ البشرية نظرة عمودية لا يصدق ما يحدث في مجال تطور تكنولوجيا الاتصال في السنوات الأخيرة.. فمن الزمجرة و المهمة و الصراخ مرورا بقرع الطبول و إشعال النيران كوسائل للاتصال قبل اكتشاف اللغة و الكتابة ثم الطباعة قبل ظهور البوادر الأولى للثورة الصناعية في أوروبا التي كانت فاتحة عصر الاكتشافات الذي لم يعرف نهايته بعد فبعد ظهور الراديو ثم التلفزيون و الذي عرف هو الآخر تطورات متلاحقة في شكله كما في محتواه و تقنيات بثه فتعددت الفضائيات بفعل الهوائيات المقعرة و في لمح البصر و بسرعة جنونية قربت هذه الوسائل الجديدة بين القارات و صار العالم على حد تعبير مارشال ماكلوهان قرية صغيرة تربطها الأسلاك و تواترت بعد ذلك الاكتشافات من ألعاب الفيديو و غيرها و أكثر من هذا فقد ظهرت أكثر هذه الوسائل ثورية ألا و هي الانترنت أو شبكة الشبكات ثم الجيل الثالث من الهواتف النقالة و التي استطاعت في وسيلة واحدة أن تحتزل كل الوسائل التي سبقتها و تحل محلها في أكثر من استعمال أو وظيفة.

إن وسائل الاتصال الحديثة قربت كل المسافات الحقيقية و المجازية فاختصرت على من هم في آخر الركب الوقت و جعلت الجميع من منتمين لعوالم أولى و ثانية و ثالثة مصطفين أمام نفس خط الانطلاق غير أن المتغير الوحيد هو انفراد كل واحد من هذه العوالم بخصوصيات أنثربولوجية و موروثات ثقافية و منظومات قيم تميزه عن غيره و إن كانت نفخة التكنولوجيا هي نفسها على الجميع فان استعداداتهم النفسية و الثقافية قد تصنع الفرق في آثار هذه التكنولوجيا و ما تؤدي إليه من ممارسات ثقافية حديثة قد تجعل البعض أكثر هشاشة من البعض الآخر أمام قوتها.. وفي غمرة كل هذه التحولات أين نحن؟ أين هو تواصلنا الحقيقي المباشر و ما الذي حدث ليجعلنا في حالات الانطواء أو التوحد على حد التعبير النفسي , لا نرى غير ذواتنا -ميولاتنا - و لا نسمع غير أصواتنا. ان الشبكات الاجتماعية كالفيسبوك و تويتر أدخلتنا بعدا اتصاليا جديدا اختصرت علينا كل المسافات الحقيقية و المجازية و أهدتنا فرصا للتواصل لم تكن ممكنة لكن ما الذي يجعلها تستحوذ على اهتماماتنا بهذا الشكل؟

الفايسبوك بين العمى الاجتماعي و فرص للتجدد مقاربة سسيوسيكولوجية لفهم الواقع..

مقدمة:

لا يختلف اثنان اليوم على أهمية التواصل الإنساني الذي يعتبر حجر الزاوية في حياة الفرد بحكم انتماءه للجماعة و أي خلل عضوي أو نفسي يعرقل عملية التواصل الإنساني تكون نتائجه جد وخيمة على الإنسان إذ لا يمكنه بعدها التكيف و اكتساب أبعاد الحياة الاجتماعية التي تتمركز و تدور حول فهم الرموز إرسالها و استقبالها¹ فلولا التواصل لما تناقلنا أفقيا و عموديا التراث الإنساني و لولاه أيضا لما استطاع الإنسان المضي قدما في هذه الحياة و تحقيق كل المكتسبات التي هي اليوم بين يديه أهله للرقمي و السمو في سلم الكائنات البيولوجية التي و إن كانت كاملة التعلم مقارنة بالإنسان فان كل ملكاتها فطرية غريزية و محدودة غير أن الإنسان الذي وهبه الخالق عقلا يميزه عن غيره جعله في أولى درجات التعلم و ميزه بغريزة الفضول² التي بفضلها، استطاع منذ القدم رفع التحديات التي جعلته أكثر وعيا بمحدوده و استطاع بعد ذلك تجاوز هذه الحدود بدرجة من التفوق تجعل الناظر لتاريخ البشرية نظرة عمودية لا يصدق ما يحدث في مجال تطور تكنولوجيا الاتصال في السنوات الأخيرة.. فمن الزجاجة و المهمة و الصراخ مروراً بقرع الطبول و إشعال النيران كوسائل للاتصال قبل اكتشاف اللغة و الكتابة ثم الطباعة قبل ظهور البوادر الأولى للثورة الصناعية في أوروبا التي كانت فاتحة عصر الاكتشافات الذي لم يعرف نهايته بعد فبعد ظهور الراديو ثم التلفزيون و الذي عرف هو الآخر تطورات متلاحقة في شكله كما في محتواه و تقنيات بثه فتعددت الفضائيات بفعل الهوائيات المقعرة و في لمح البصر و بسرعة جنونية قربت هذه الوسائل الجديدة بين القارات و صار العالم على حد تعبير مارشال ماكلوهان قرية صغيرة تربطها الأسلاك و تواترت بعد ذلك الاكتشافات من ألعاب الفيديو و غيرها و أكثر من هذا فقد ظهرت أكثر هذه الوسائل ثورية ألا و هي الانترنت أو شبكة الشبكات ثم الجيل الثالث من الهواتف النقالة و التي استطاعت في وسيلة واحدة أن تختزل كل الوسائل التي سبقتها و تحل محلها في أكثر من استعمال أو وظيفة. و حتى يدرك القارئ حجم تسارع التحولات فيكفي أن نعرف أنه يقدر علميا مجموع المعارف ابتداءها من السنة الميلادية الصفر قد تضاعف لأول مرة سنة 1750 ثم سنة 1900 ثم سنة 1950 ثم سنة 1960 ليأخذ هذا التزايد منحاً أسياً غير مسبوق في تاريخ البشرية ، ومعنى هذا أن العالم قد أنتج من المعلومات في العقود الثلاث الماضية ما لم ينتجه طيلة 5000 سنة الماضية. هذا التطور الذي طال الكم و الكيف و توج في القرن العشرين باختراع الالكترون و القنبلة النووية و اكتشاف الأحماض النووية و وضع أسس شبكة الشبكات³

إعادة تموقع الإنسان وسط محيط المعلومات

إن المتتبع للأحداث الماضية و التطورات المتلاحقة حتما ينتبه لحجم التفاصيل التي تغيرت في مشهد الحياة اليومية فتغيرات كالتى شهدها العالم أثرت قواميسنا بكلمات جديدة للتعبير عن وقائع جديدة فظهرت مصطلحات كالعملة الثقافية و الاجتماعية و الفكرية ، عملة البيئزا و الشوارما و الأزمات الاقتصادية و السياسية ، عملة جعلتنا لا نكاد نطفو في محيط من المعلومات التي تجرفنا أحيانا كسيول عارمة لا يمكن تجاهلها بحكم انتماءنا لهذه القرية التي تربطها الأسلاك ، تقولب آراءنا توجه سلوكياتنا و تتحكم فينا تلهو بعواطفنا تميل بنا إلى حيث أراد القائمين على هذه السلطة الجديدة التي تنفرد بالحكم المطلق أحيانا في

1- تشارلز ر . رايت، المنظور الاجتماعي للاتصال الجماهيري، ترجمة محمد فتحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1983، ص11.

2- زهير احدادن ، المدخل العلوم الإعلام و الاتصال ، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، 1993. الجزائر ص9.

3- نجاح كاظم ، العرب و عصر العملة المعلومات البعد الخامس، المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية 2002 ض302.

المتلقي.. هذا المتلقي ليس دائما من يرفض و يقول لا و إن ملك زمام السيطرة على آلة التحكم عن بعد بالنسبة للتلفزيون أو حرية الإقبال أو الإدبار عن باقي الوسائل الأخرى فانه لن يستطيع غير الامتثال للأوامر التي تملبها عليه هذه الوسائل الحديثة بطبعها السلوك اليومي له فمن منا لا يشاهد التلفزيون ممثلا لغريزة الفضول التي تميزنا عن باقي الكائنات الأخرى و من منا لا يخلو بنفسه ردهة من الوقت في اليوم ليرقب ما تحمله له علبته البريدية الالكترونية من أخبار تخرجه من واقعه المعهود و من منا لا تستفزه آخر ماركات الهواتف النقالة و كل الخدمات التي تتيحها فتجعله عاكفا عليها جاد الملامح، حازما في ضرورة فكه لشفرات هذه الوسيلة الحديثة و فهم كل آلياتها واكتشاف أسرارها، غير هذا من منا لا يدخل بيتا و يجد حتى المسنات المحظوظات بمحافظتهن على حاسة البصر قابعات أمام الفضائيات حريصات على تتبع آخر الحلقات من المسلسلات التركية دون اكتراث لما يجري حولهن، فالمهم لديهن هو عدم تفويت مشاهدة الحلقة للمرة الثانية أو الثالثة لست أدري إلى متى ستظل المشاهدات تستمتعن بالنظر لنفس اللقطات تعاد و تعاد .. دون اكتراث للانحسار الذي يشهده تواصلهن الحقيقي مع المحيط واقع جعل بعض المتخصصين يصفون ما يحدث ب "الاستعمار⁴ الجديد و الممتع".

إن وسائل الاتصال الحديثة قربت كل المسافات الحقيقية و المجازية فاختصرت على من هم في آخر الركب الوقت و جعلت الجميع من منتمين لعوالم أولى و ثانية و ثالثة مصطفين أمام نفس خط الانطلاق غير أن المتغير الوحيد هو انفراد كل واحد من هذه العوالم بخصوصيات أنثربولوجية و موروثات ثقافية و منظومات قيم تميزه عن غيره و إن كانت نفخة التكنولوجيا هي نفسها على الجميع فان استعداداتهم النفسية و الثقافية قد تصنع الفرق في آثار هذه التكنولوجيا و ما تؤدي إليه من ممارسات ثقافية حديثة قد تجعل البعض أكثر هشاشة من البعض الآخر أمام قوتها.. و على المستوى الأكاديمي تنبه البعض إلى خطر تشويه البيئات الثقافية السائدة في المجتمعات التقليدية⁵ .. وفي غمرة كل هذه التحولات أين نحن؟ أين هو تواصلنا الحقيقي المباشر و ما الذي حدث ليجعلنا في حالات الانطواء أو التوحد على حد التعبير النفسي ، لا نرى غير ذواتنا -مبولاتنا - و لا نسمع غير أصواتنا. منغمسين لا نرى غير نفس الصور تتكرر دون كل أو مل حتى الأخبار سقطت في فخ لعبة المرآة تعيد لنا ما يحدث.. و نجت ما تعيده لنا.. تحول الإنسان إلى حيوان تروضه وسائل الاتصال يتبدل و تنتفي إرادته و يستكين و يستسلم لما يشاهد، قفز جميعنا إلى بعد آخر محاطين فيه بالمرايا من كل جانب، نبعث بإشارات تعود إلينا فنكرر إصدارها معتقدين في أصالتها .. تحولنا إلى عبيد الصورة و التقنية الحديثة لا نرى إمكانية للتصرف دونها و ماذا حدث للإنسان فينا؟ من منا لم يأخذه الفضول لمشاهدة حفل زفاف ملكي لأمير لا يعيننا.. غير أن تجند كل الوسائل الإعلامية لنقل مراسيم هذا الاحتفال يجعلنا أمام واقع مفروض أمام هذه التراتبية للأحداث.. تراتبية تعبي عقولنا و لا نعرف في الكثير من الأحوال من يقف وراءها و لا نكلف أنفسنا طرح السؤال فلمهم عندنا من يشاهد أما من لا يشاهد فقد تفوته فرص المشاركة في أحاديث الغد.. و بالتالي انحسار في التواصل الاجتماعي الحقيقي المباشر.. و السلطة كل السلطة لهذه الوسائل الحديثة التي يمكن أن تصنع أبطال من لاشيء و تمشم من هم أحق بالإتباع.. لا تمكنهم من لعب دورهم في هذه الحياة.. السلطة للصورة و الصوت و الذبوع و الانتشار و من يملك هذه الإمكانية يستطيع التأثير و من يستطيع التأثير يملك السلطة فمن يملك زمام الاتصال و وسائله و فرص نشر المعلومة يملك السلطة و لا يهم بعد ذلك فحوى و مضامين ما ينشر لأن الرسالة هي الوسيلة⁶ كما قال ماكلوهان في الستينات من القرن المنصرم عندما تنبأ بما سيحدث أمام ما فرضه التلفزيون الذي كان في أوج تطوره من فرص التأثير التي لم تكن في الحسبان .. ماكلوهان لم يكن شاهدا

4- محسن محمد، صاحب الجلالة التلفزيون، دار غريب للطباعة، القاهرة ص9.

5- أنظر شلر منظر نظرية التبعية الاعلامية، عثمان بن محمد الأخضر، النظريات الاعلامية المعيارية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت 1997، ص: 25.

6- Marshall Mc Luhan , "Pour comprendre les médias" (Points Essais, Paris, 1997), pages 25 à 27.

على هذا العصر الجديد عصر الشبكات الاجتماعية الافتراضية كالفيسبوك و تويتر و غيرها التي يبدو أنها زادتنا قدرة على قدرة في التواصل غير أن عبارته الشهيرة بأن الرسالة هي الوسيلة لا تزال صالحة لهذا الزمان و هذا الفضاء لقد أخذ الفيسبوك في صياغة أنماط جديدة للتواصل و لكن على حساب ماذا؟ ثم ما هي ملامح هذا التواصل الجديد الغريب المغربي و المثير السحري الذي جعلنا نجد روابط قد أفقدها الزمان و المكان إمكانية الاستمرار و انتهت إلى مجرد ذكريات في دواخلنا بحكم الواقع المتجدد.. هذا بالنسبة للبعض و البعض الآخر يجد فرصا غير متوقعة و لا مؤتملة في التودد و التقرب لمن هم أبعد منه بحكم الانتماءات و الهويات و التراتبية الاجتماعية و تفاصيل أخرى .. و كل هذا مقابل عزلة و انطواء أمام من هم في قلب حياتنا اليومية ألسنا أمام توحده و انطواء غير معهود و لا مشهود قبل غزو الوسائل الحديثة لشتى ضروب حياتنا اليومية⁷ لماذا ندير ظهرنا للأقرب منا و ننطوي على هواتفنا النقالة أو لوحة المفاتيح لحواسيبنا الفردية نستكشف مواطن لذات جديدة بالتعرف إلى آخرين لا نعرف عنهم شيء .

إجابة ممكنة أو مقارنة سسيونفسية لفهم الواقع

إن المجتمع مصدر أمل و ألم أيضا .. مصدر أمل لأن في المجتمع و به نحقق ذاتنا و أمام أفرادنا ننتزع العرفان و إثبات الذات فلا يمكن للفرد منعزلا في جزيرة بعيدة أن يعيش هذه النجاحات و يتتشي بتقدمه إلا اجتماعيا و منتزعا اعتراف الآخرين و الإنسان منذ طفولته لا يتعبه شيء أكثر من عدم اكتراث الناس له فيجهد نفسه للفت النظر إليه بحثا عن الحنان و العطف و الاعتراف و يظل هذا الشعور يرافقه حتى لسنوات النمو اللاحقة فيتحوّل في الكبر إلى حاجات⁸ لا بد من إشباعها كحاجة تعظيم الذات و تأكيدها كما عبر عن ذلك أبراهام ماسلو⁹ و جعل هاتين الحاجتين في قمة هرم الحاجات الإنسانية التي تحدث عنها، و لا يتسنى ذلك للإنسان دون الاتصال بالآخر فالجماعة هي التي تحدد ملامح الإنسان فينا ، و لا نتمنا هنا الطبيعة الإنسانية إن كانت شريرة أو طيبة فلا بد من الاثنين لصنع الحياة داخل المجتمع و من هذا المنطلق يسعى الإنسان للتواصل مع الغير إما بحثا عن الحنان و العرفان أو مبدئا استبداده و سيطرته.

..غير أن نفس هذا المجتمع هو مصدر ألم أيضا لطالما ردد سارتر بأن الجحيم هو الآخر. لأن الآخر قد يسجننا في زنازة من الأحكام المسبقة و يصنّفنا في خانة المغضوب عليهم و المنبوذون اجتماعيا بخطابات اقصائية عهدناها و سئمنها و بنظرات تحمل الوصم المقيت .. أما نحن و قبل هذه التكنولوجيا و فرص التواصل الافتراضي كنا نراوح أمكنتنا بين هذه المخاوف سعيا لتحقيق الذات باغتنام شتى الفرص إلى أن قدمت لنا التكنولوجيا و على أطباق من ذهب فرص و كان لا بد من اغتنامها فالتواصل الافتراضي يمنحنا حرية لم تكن يوما متوقعة في رسم ملامح صورنا و في تقديم ذاتنا للآخرين كما نريد نحن و في إعطاء الانطباع الذي نريد عن أنفسنا و لا يهم إن كان ذلك هو الحقيقة أم لا و نستطيع التعبير عن آراءنا و مكبوتاتنا و ميولاتنا و

7- Voir le tres interessant livre intitulé *Alone Together (Seul tous ensemble)* est le troisième tome d'une trilogie vouée à l'exploration des relations entre les êtres humaines et la technologie. Professeur au prestigieux Massachusetts Institute of Technology, Sherry Turkle y critique la promesse de rencontre et de lien social des nouvelles technologies et défend l'idée qu'en réalité, les nouveaux médias nous isolent encore plus dans la mesure où ils empêchent une vraie intimité. Attention à ne pas devenir les esclaves de la technologie et de la communication virtuelle qu'elle offre : nous devons au contraire en rester maître et continuer à dompter ses évolutions, prévient l'auteur.

8- حامد زهران الصحة النفسية و العلاج النفسي، الطبعة 4 دار عالم الكتب، القاهرة 1997 ص 47-48.

9- Maslow, Abraham (1954). *Motivation and Personality*. New York: Harper. pp. 236.

عواطفنا و حرية لم نكن نحلم بها يوما فلا أحد يطالبنا بتبرير أفعالنا ، نحن -أخيرا -من يحكم كل التفاصيل في هذه العلاقات الجديدة و لا يقيدنا أي عقد معنوي كما هو الشأن في العلاقات التي تكون حاسة البصر و سيل الحرارة الإنسانية المتدفقة من عيوننا هي الحارس الساهر على احترام تلك العقود الضمنية ..لقد أهدانا التواصل الافتراضي فرصا في التجدد و التحرر من الأحكام المسبقة التي تقيدنا في تواصلنا المباشر . و أصبح النت كواد مقدس و قبلة للاغتسال من الأحكام المسبقة التي طالما حدت من حرية تحركاتنا داخل الجماعة التي نعيش فيها .. دين جديد يستقطب المعتقدين فيه و الأتباع بالملايين.. فوق كل هذا لقد زعزع و بعمق مكانة القيم و ترابيتها التي كانت تحدد سلوكياتنا داخل المجتمع و خلقت حالة من اللامعيارية أو الأنوميا على حد تعبير دركايم¹⁰ لن تكون بدون نتائج و في المستقبل القريب و البعيد فالمتعارف عليه أننا ننتمي إلى مجتمع يمقت ثقافة الفرجة و الاستعراض غير أن المتتبع لبروفيلات الشخصية المعروضة في صفحات أصحابها يخلص إلى العكس و بالرغم من تلك الإمكانيات التي تتيحها هذه الوسيلة في بعث رسائل خاصة إلا أننا نجد الكثير من المشتركين في الخدمة يميلون إلى استعمال الجدار لاستعراض تفاصيل حياتهم بطريقة مقصودة و فيها من الاخراج المسرحي ما يجعلها أقرب إلى برامج تلفزيون الواقع كما لاحظ البعض و عموما فمن التحرر من الأحكام المسبقة الى النرجسية التي ترمي بضلالها على العلاقات الافتراضية وصولا إلى فرص التجدد و التحرر و حتى الثورة على الأنظمة السائدة... الحبال التي تربطنا بهذه الوسائل الجديدة غاية في الدقة و التماهي و التداخل و الوسيلة الجديدة لا يمكن أن تكون بدون نتيجة و آثار في خلق ممارسات اجتماعية جديدة تستحق كل النظر و التأمل ..

المراجع :

- أنتوني غدنز، اللامعيارية، علم الاجتماع، ترجمة و تقديم فايز الصباغ ط 4.
- تشارلز ر . رايت، المنظر الاجتماعي للاتصال الجماهيري، ترجمة محمد فتحي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،1983.
- حامد زهران الصحة النفسية و العلاج النفسي، الطبعة 4 دار عالم الكتب، القاهرة 1997 ص 47-48.
- زهير احدادن ،المدخل العلوم الإعلام و الاتصال ،ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر ، 1993.
- شلر منظر نظرية التبعية الاعلامية ،عثمان بن محمد الأخضر، النظريات الاعلامية المعيارية ،حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت 1997.
- عثمان بن محمد الأخضر، النظريات الاعلامية المعيارية ،حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت 1997.
- محسن محمد، صاحب الجلالة التلفزيون، دار غريب للطباعة ،القاهرة.
- نجاح كاظم ،العرب و عصر العولمة المعلومات البعد الخامس، المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية 2002.
- Marshall Mc Luhan , "Pour comprendre les médias" (Points Essais, Paris, 1997).
- Maslow, Abraham (1954). Motivation and Personality. New York: Harper.

10- أنظر اللامعيارية في كتاب علم الاجتماع لصاحبه أنتوني غدنز ترجمة و تقديم فايز الصباغ ط 4 ص 283.